

CONTRE UNE TERREUR DES FAITS

RAYMOND GUERIN

مقاومة الذعر من الواقع

٢ (١)

ما أغرب هذه الحاجة (ولعلها حاجة غريزية) التي تضطر الناس إلى أن يضعوا على وجه الحق البين قناعاً كاذباً مضللاً . وكان النظر إلى ما هو واقع ، أو مجرد قراءته يؤذيهم ويصدِّمهم ، فهم لا يقبلونه ولا يطيقونه . إنما يرضون عن الأفاصيص التي تقصّ لهم حوادث الجنّيات الساحرة ، فهم في حاجة إلى الصور التي تسحر العيون وتخلب العقول . أما الضوء الواضح الذي يكشف عن أدق التفاصيل المتوارية ، ويبعث الظلال القوية ، فإنه يخيفهم . وهم مؤثرون على الحق الواقع جميع ألوان الريبة البسيكولوجية ، وجميع ضروب النفاق الفسيولوجي . ليس في حياتهم الخاصة حسب ، بل لعلهم يؤثرون ذلك بنوع خاص في الكتب التي يقرؤونها . وهم يطلبون تارة إلى هذه الكتب أن تكون لها مزايا المخدر وآثاره ، ويتطلبون منها تارة أخرى أن تذرّ الرماد في أعينهم ، يريدون أن ينقلوا إلى عالم آخر ، لا يعينهم في ذلك أن يكون هذا العالم قد تجاوز قدمهم ، أو أن تكون الأشباح التي تضطرب فيه قد فقدت ما تمتاز به أشخاص الحياة الواقعية من قوة وغموض .

ومن ذا الذي ينكر أن الحياة قد تكون أحياناً أشد فتنة مما تجرى عليه عادة ! فلها ذرى بهجة وتآلق . وبين الحين والحين ينجم من اطرادها الفاتر العام أشخاص ممتازون يتجاوزون الحدود الطبيعية ، كما تظهر ألوان من الإخلاص عجيبة ، ومن الشعور الذي يفوق الطاقة الإنسانية . ولكن أهذا هو مقياسها الطبيعي ؟ كلا ! فإن فيها ، بل وفيها أكثر من أي شيء آخر ، هموماً وضبعة ،

(١) الكاتب المصري عدد ٥ (يناير سنة ١٩٤٦) .

وأعراض ركود . وعندئذ يستطيع أشد أشخاصها بروزاً أن يخلعوا عن أنفسهم حلبيهم الذهبية وثيابهم المزركشة ، وأن يتجردوا من هذا البهرج الذي بهروا به الناس ، فيرتدوا أسماهم اليومية الرثة البالية التي تحيب لها الآمال ، ويضطروا إلى حياة قبيحة بشعة .

فأى عجب إذن في أن يتزع المؤلفون إلى أن يبعثوا في كتبهم ، وإلى أن يصوروا فيها كل ما يجيش في ذهن الإنسان ، أو ما كان راكداً فيها ، كل ما اتصل بأعماله الظاهرة أو بمركاتة الداخلية الخفية ، بأفكاره الخارجية الواضحة أو بأشد وساوسه ارتباكاً ، وأي عجب في أن يطمحوا طموحاً طالياً إلى الملاءمة بين الأضداد وتناول أرقى الحالات وأدناها بنفس الرغبة الاستطلاعية وبنفس روح التفهم في كلا الحالين ! فكل شيء قائم في الإنسان ، متناوباً أو مقترناً . وإذا لم يصل هؤلاء الكتاب بعد إلى أن ينسوا هذا الأمر فلعل مرجعه أن الحياة بدلا من أن تقتصر على أن تظهر لهم ضوءها وحده أو ظلمتها وحدها كما تبدو للكثيرين ، قد غمستهم في النور والظلمة دولة واقترانا .

وقد مكنتهم هذه الحياة من الاتصال اتصالاً يزداد توثقاً على مرّ الأيام (وكثيراً ما يكون اتصالاً مرّاً شنيعاً) بما تشتمل عليه من تمدد وتعقد . ومتى انتهى هؤلاء الكتاب ، إما بدافع المزاج أو الوراثة أو على أثر حاجة في تربيتهم ، إلى أن يغشوا جميع الامكنة . فيترددون في نفس الوقت على الصالونات الفخمة والماءوى الحقيرة ، كما يدخلون غرف السيدات ومصانع العمال ، يختلطون بجميع الأوساط ، ويعرفون جميع ألوان القلق النفسى واللذة والاشمئزاز والمتعة . تمرّضوا لجميع ضروب الحظ وسوء الحظ ، لجميع أنواع الاستطلاع وعدم الاكتراث ، كما عرفوا جميع أشكال الحرية والقيود . سمّت عقولهم حتى بلغت أقصى درجات الشغف ، كما انخفضت حتى زحفت في الوحل . وهم يريدون أن تحفل كتبهم بهذا كله . نعم ! هم يعافون منذ الآن ان يقتصر تصويرهم على ناحية كلها فضيلة كما يعافون تصوير عالم يقتصر على الرذيلة دون سواها ، على بيئة مأتمة من المتكافئين المتصنعين أو من الخليعين المهتكين ، على بيئة كلها قد يسون أو كلها خاطئون ، على بيئة منظمة أو أخرى مضطربة ، على بيئة رقيقة رقيقة أو أخرى فظة غليظة . فاذا ما أوتوا من القوة والبراعة حظاً كافياً ، وكانت شخصيتهم من الغنى والحصب والتنوع بحيث يقدمون على هذه المغامرة ، فإن العالم الذى

سيعرضونه علينا سيكون متعة ذهنية لنا ، وسيتألف من جميع البيئات الممكنة . سيكون عالماً جديداً في إنشائه ، فيعوضنا من هذا العالم اليومي الذي تعنى فيه حياتنا .

ولنؤمن لهم ؛ فقد أطلوا التفكير في الصعاب التي تعرضهم لها هذه المغامرة . وهم قد احتملوا من غير شك أكثر من غيرهم هذا النير الثقيل الممض الذي تفرضه الجماعة على أفرادها حين ينحرفون عن الطريق القويم . فمن الناس من يتكفون الفضيلة عن غفلة أو عن نفاق ، وهؤلاء يتأذون عندما يخيل اليهم أن رجلاً ينجح إلى التحرر من مواضع الالياقة العتيقة ، حين يقرر أن يتخذ شيئاً من الحرية فيما بينه وبين نفسه أو مع غيره من الناس . فليس يكفيهم أن ينبذوا « المركيز دى ساد » (١) أو « رستيف دى لا بريتون » (٢) ، ولكنهم يقتنعون وجوههم حين يرون « بروسست » أو « جويس » يتعمقان الطبيعة الإنسانية ويقترحان طرقاً كانت مواضع السلوك تنكرها حتى ذلك الوقت . يثورون على هذه الدقة التي يسمونها مجوناً ، وعلى هذه الصور المشتقة من صميم الحياة التي يسمونها أقذاعاً ، ويعلنون أن تشریح نفوسنا وعرضها على هذا النحو لا يمكن إلا أن يسم العقول ، وإذا لم يكن من هذا بد فإيثار الصمت خير . ولعل هؤلاء المتكلمين المنافقين إن أتيح لهم من السلطان بعض التأيد أن يفرضوا على الأدب رقابة تصطنع مظاهر العفة . وقد دلت التجربة على أن مثل هذه الرقابة تلحق بالأدب أضراراً جسيمة في كل مرة ظهرت فيها ، حتى إننا لنخجل لها من عنفها الضيق المحدود الأفق ومن عدم تسامحها . إن التعصب والطفيان إن لم يصلا قط إلى منع الحقيقة من الفوز والتحرر آخر الأمر حتى حين يعتمدان أشد العنف ويلجآن إلى التحريق .

وإذ يعجز هؤلاء الغافلون والمنافقون عن أن يبلغوا أقصى غاياتهم في تنفيذ نواهيهم ، فانهم يهتمون في الأقل على الفنان الذي ينتفع في آثاره بما في الحياة

(١) كاتب فرنسي من كتاب القرن الثامن عشر توحى في آثاره تصوير أقيع ما في الحياة الإنسانية من الفظائع والأثم .

(٢) كاتب فرنسي من كتاب القرن الثامن عشر عدل عن أسلوب معاصره إلى أسلوب له حظ عظيم من الصراحة ومواجهة الواقع .

من قبيح مردؤل ، أن يهضم ذلك ويتمثله قبل أن يحاول عرضه أو التعبير عنه .
ومسألة المستساغ وغير المستساغ في الفن مسألة أخرى لا تقل دقة وشأنا .
وما أكثر الذين يعجبون إعجاباً شديداً بطائفة من الكتاب شهدوا أشبع المناظر
(مناظر الرق والهمجية وما في الحواضر من البؤس والشهوات المخزية وهوان
الفكر والانفاس في اللذات والإفراط في العريضة والفسوق) فلم يصوروا في
كتبهم ما رأوا ، وإنما صوروا فيها شعورهم به على نحو جعل هذه الكتب ،
وإن ظلت فاجعة ممزقة للنفوس ، تبدو كأنها تسبح في عالم خيالي غير واقعي
له سحره الذي لا ينكر . وإذا كانوا أشد إخلاصاً من أن يصوروا عالماً يلام
مثلهم العلبا ويعرفون أن هذا العالم لا يوجد ، فهم قد أزمعوا الفرار نهائياً من
كل ما يجمعهم بالعالم الواقعي . وما داموا لا يستطيعون الاكتفاء بعالم بعيد
عن الكمال الذي يبتغونه له ، فقد اختاروا أن يضطروا أنفسهم في شيء من الأثرة
إلى تفضيل الانخداع بالمظاهر على الحق . لم ينظروا إلى الأشياء كما هي ، وإنما أبا
إلا أن ينظروا إليها كما يحبون أن تكون ، فلجأوا إلى أبراج عاجية من مذاهب
الفن يعتمنون فيها ، فهم يستمعون بأعذب الالفاظ وأبعد الصور خفاء .
يشوشون ورق اللعب ، ويعشون «الظهر» ، ويتلفعون في عبادة من الاستعارة ،
ويتحولون إلى أرواح خالصة ، ويتشدقون بالروحانية كأنهم جنّ أو سحرة من
عالم غير عالما هذا ، وكأن طبيعتهم من جوهر علوي ممتاز . كل ما تجرى به أقلامهم
مثالي محجب غير واضح الخطوط ولا بتين الملامح . وقد يمزق نفوسهم ما في
الحياة الواقعة من ألم وبشاعة ووحشية ودعارة . ولكنهم مع ذلك يحرصون على
أن يصوروا كتبهم من هذه الأوزار . أيديهم اليمنى التي تكتب تجهل ما تمسه
أيديهم اليسرى التي لا تكتب . أرجلهم غائصة في الوحل بل في الدم أحياناً ،
ولكن رءوسهم في السماء . هؤلاء على الأقل هضموا ما يلفظه العالم من قبح .
وإذا أعجزهم أن يرفعوا أشخاصهم فإنهم لم يترددوا في أن يكذبوا على أنفسهم
ليرفعوا أشخاص قصصهم .

وليس كل إنسان قادراً على التلاعب بالالفاظ بهذا اليسر .
وكتاب آخرون بلغ تعظّمهم إلى الطُّهر والمثل الأعلى والحق المطلق حدّاً
جعلهم يذعرون لمجرد الاقتراب من الحياة الواقعية العادية . لا يستطيعون أن
يفتحوا أعينهم أو أن يمدوا أسماعهم دون أن يعترتهم غثيان . يرون كل بغيض

في الحياة شيئاً لا يقبل . وينتهي بهم هذا إلى العجز عن التحول عن الواقع الشنيع . وهم من أجل ذلك لا يكادون يمسكون القلم حتى يخلصوا أنفسهم في غير تردد مما تضيق به نفوسهم ولا يعرفون بالالفاظ ؛ فالالفاظ أمامهم يستعملونها كما هي في مدلولها الساذج الأصلي سواء كان ما تدل عليه قياً أو متبدلاً . فليست الالفاظ إلا وسائل ، وليست هي الغاية الأساسية ، إنما الغاية الأساسية هي هذا السرطان الذي ينخر جسم الإنسان . يجب مهما يكلف ذلك من ثمن إخراج الصديد من هذه الجراح المتقيحة ، وفتح هذه القروح وتفريغ هذه الأمعاء .

ولا ينبغي أن نورط أنفسنا في الخطأ . فهما تدنست أيدي هؤلاء الكتاب في هذه المهمة الكريمة ، ومهما اشمأزوا من أنفسهم بسبب القذارة التي يكشفون عنها ، فإنهم مع ذلك أشد ما يكونون تلهفاً إلى الجمال البعيد المنال . فهم لا يزالون يتمنون اليوم الذي يتاح لهم فيه أخيراً ألا يكتبوا إلا ألفاظاً كلها حنوً ورشاقة وهدوء ، كما يفعل غيرهم . ذلك اليوم الذي يكفون فيه آخر الأمر عن مثل هذا العلاج القاسي . ولكن ليس هذا كله ، مع الأسف ، إلا أحلاماً وأوهاماً . فهم أتخذ بصيرة من أن يعتقدوا أن يوماً قديماً قبل وفاتهم تهدأ فيه نفوسهم وأجسامهم هدوءاً تاماً ، ويستطيعون أن يحيوا في عالم مطلق غير مقيد . والكتب التي تخرج من أعماق الشقاء الذي يفرقون فيه ليست إلا منافذ يخلصون بها أنفسهم من شر ما تلقى .

يأبون أن يستسلموا لما في الحياة من بشاعة كما يفعل أولئك الذين ينحازون في أثره وجبن إلى هذه الناحية العذبة الراقية ، ناحية الفن للفن . ويفضلون أن يُغنوا آثارهم بكل ما بقي فيهم من شر ليظهروا بذلك أنفسهم منه . وهم في هذا على العكس من أولئك الذين يجيدون كتابة النثر الرفيع والشعر البديع والذين تزداد قلوبهم سواداً إلى سواد ونفوسهم فساداً إلى فساد . فكيف يلامون على ما يلفظون في كتاباتهم ! لا يمكن أن يقال إنهم مدفوعون إلى ذلك بالرغبة في العرض والإظهار ، أو الإمعان في التلذذ بالذيلة ، أو أن مرجع ذلك تشويه ملازم لطبيعتهم ، أو ابتذال في فكرهم . إنما يتوخون في عملهم هذا دقة عجيبة تقدم تعلم الحياة والتمرس عليها على تعلم الفن ومكابدة مصاعبه . وتلك إرادة تصمم على التذكير أن لا شيء في الانسان أعظم من الإنسان . وهؤلاء

مقاومة للذعر من الواقع

الكتاب لا يحفلون بآيات البيان ، بل يسعون في محاولة يائسة ، ولكنها كريهة ، إلى أن يشقوا حياتهم طريقاً قد تصير هذه الحياة نفسها في نهايته من آيات البيان .

قد يمرض علينا بما يأتي : ما مصلحة محب الأدب الرفيع في هذا النوع من الكتب ؟ وجميل بلا شك أن يجعل المؤلف من حياته آية من آيات البيان ، ولكن ما نتيجة ذلك آخر الأمر ؟

وقد وجه الكتاب القصصيون المحدثون لانفسهم هذا الاعتراض ، واقتنعوا دون صعوبة بأن آثارهم لو أنها غرقت في الدمامة فلن يستطيعوا النظر إليها إلا مشمئز . وأغلب الظن أنهم سينتهون بالعدول عن الكتابة وإيثار الصمت . وإذا بقيت لديهم بقية من همة الكتابة فذلك لأنهم لم يفقدوا الأمل (وهو دائماً أمل لا يتخلله وهم) في أن يتجاوزوا مألوف الحياة ويأتوا بشيء جديد . ومهما تأذوا مما يتبينون من دنس ومن رذيلة في انفسهم ومن حولهم فإنهم يشعرون (ولعلمهم في شعورهم هذا أشد إحساساً من غيرهم) بهذه الصور المضحكة المسوخة بهذا البذخ المفرط ، وبألوان السعادة هذه التي قد تمنحها الحياة أحياناً . وهم يرون أن أي أثر يتعمد فيه وصف القذارة ، أو اتخاذ موقف التعنت المرضى السقيم ، أو تصوير الوسواس الإجرامية أو الجنسية ، لا يزيد في قيمته عن التزين التافه المألع الذي يظهر في تلك الأفاصيص التي تقرؤها الأسر مجتمعة في المساء من حول النار .

على أنهم لا يدعون احتكار الحق كله ؛ فهم لا يريدون أن يقبهم جميع الكتاب في هذا السبيل ، بل يريدون احترام مبدأ حرية الاختيار . يريدون أن يتركوا مجالاً لهذه الآثار التي أنشأها كتاب من أولى البصائر النافذة ، والتي تعبر عن نظرة للعالم وتصوره لا تفرضها الطبيعة بل يختارها الكتاب لانفسهم اختياراً وهم يعرفون ما يقدمون عليه . فهم يعلمون حق العلم أن جميع الكتاب الآخرين الذين أذعنوا لمزاجهم أو تأثروا بظروف مولدهم أو نشأتهم ، كتبوا هم أيضاً كتباً قيمة . وهم لا يؤاخذونهم بقصورهم ولا باصرارهم على بعض اللوازم ، بل يقبلونهم كما هم ، ويقدرهم كتبهم على أنها وثائق دقيقة . فالعالم الذي يصوره مريدث أو جيمس كله عن الطبقة الوسطى البورجوازية . وعالم كالديويل أو دايبنت كله عن

طبقة العمال . وعالم ديكنس شعورى . وعالم سترنر أو باتلر كله تهكى . وهو عند جيد أو هكسلى عقلى . وعند تشيكوف فهو إقليمي . بينما عالم كافكا قاصد كله إلى ما وراء الطبيعة . وهو عند دستويفسكى شيطانى . وعلى عكس موريس مارتان دوجار فعالمه يصور الأسرة . وعالم مارو يصور البطولة ، بينما هو عند لورنس جنسى . ولكل منهم ناحية صدق واقتضاء وضرورة .

كما أن هؤلاء الكتاب القصصيين يرون أن القارئ حر فى أن يؤثر الكتب التى لا تقتصر على الحياة اليومية الجارية ولكنها تبعد عن الواقع المألوف . فالقارئ حين يأخذ كتاباً إنما يلتمس فيه ما يريجه أو ما يعينه على الهرب من الحياة المحيطة به . وهذا العالم الخيالى الذى يستكشفه فى الكتاب ، وهذه الدى التى على هامش الحياة ، وهذه الصور البيانية نفسها حتى حين تكون اتصالات مفرقة فى الحماسة ، كل هذا جذاب ، بل هو جذاب لهذا السبب نفسه . فالقارئ لا يلتمس فى مثل هذه الكتب شخصيات محققة ، وإنما يريد أن يفقد شخصيته هو فيها . ولا يفجؤه أن يتجاوز أشخاص القصة الحجم الطبيعى المألوف ، أو أن تتخذ الألفاظ التى ينطقون بها والمناظر التى يضطربون فيها صورة الملحمة ، بل أن يتشخص الحيوان والنبات وعناصر الطبيعة نفسها ، كما لا يفجؤه أن يدخله الكتاب فى بيئة لا تنعكس الحياة فيها إلا مشوهة ، قد شوحتها هذه المرايا المحرفة وهى مرايا التشبيه الشعرى والعبث الغليظ ، والمرايا التى تعكس اشباح الموتى وظلال الوم . بل لا يفجؤه أن يدفع إلى أغرب ما ينسجه الخيال من ألوان الخلط والقتل والخلاعة والاختطاف والخراب والثروة .

فالقارئ مستعد دائماً لأن يتخذ لنفسه إهاباً غير إهابه (يكاد ذلك يرجع إلى فطرته) وهو مستعد لأن يخبله السحر ، ويقهره التسلط ، ويستهو به اللعب .

فن الجائز جداً أن يتمتع القارئ على قصصيين لا يريدون أن ينقلوه إلى أى مكان ، بل يقتصر همهم على أن يبصروه بنفسه وأن يجولوا أمامه مرآة لا رحمة فيها ليس لدى هؤلاء الكتاب لعب يدعون إليه . ليس فى وسعهم أن يحولوا الرجل أو المرأة إلى تمثال من ملح ، أو إلى قطر من ذهب ، أو إلى طائر أزرق ، أو إلى حسناء نائمة فى الغابة ، أو إلى قط منتعل ، أو إلى إهاب حمار^(١) . لا يبتغون إلا

(١) يشير بهذا كله إلى الأفايس والأساطير المعروفة فى آداب القديمة والحديثة .

مقاومة لدمر من الواقع

أن يعرفوا له الستار عن الوجود مصوراً في شكله الجديد ، بما ينطوى عليه من اضطراب وإخفاق ، من طموح وانحدار ، من حلم وعمل ، من يأس وخيبة أمل . ومع ذلك فلن يستسلم هؤلاء الكتاب ، لأنهم يدعون لمقتضيات الاخلاص والصدق . هم يلتزمون بما ذجهم عند أى فرد من الأفراد ، فى أى ظرف من الظروف ؛ لأنهم يرون فى غير تردد أن لا خطر لشيء ، وأن الحياة لا تستحق الإغراق فى العناية بها ، وأن اتساق الحوادث ليس أجل خطراً من الآراء التى تناقش ولا من البدع ولا من الأهواء . وهم من أجل ذلك يضعون يد القارئ على سخافة الحياة التى يدعون لها الفرد أو التى يختارها لنفسه ، وغرور ما يبذل من الجهود للتحرر منها ، ومبلغ ما يصطنعه مع ذلك من مثابة فى سبيلها ، بل طموحه الرفيع إلى إدراك مستوى إنسانى ممتاز ، ثم تبينه فى الوقت نفسه أن بلوغ هذه الغاية مستحيل .

فأنت ترى ما فى مثل هذه المحاولة من شجاعة ومرارة . فهى حقاً محاولة من صمم على ألا يتخلص من أى تبعة ، وأزعم على ألا يتراجع أمام أى حادث ، أمام أى استكشاف . فلا شك أن هذا التصميم يفيد آخر الأمر فى تمكين الناس من أن يعرفوا بعضهم بعضاً .

ولنقرر أيضاً أن فى هذه المحاولة مقاومة حاسمة لأولئك الذين يعلنون أنفسهم بأوهام السراب ، ويركدون فى سحب الخيال ، ويحتجون بأن الحياة اليومية تبدو لهم غير محتملة فينبون لأنفسهم ، فى شح ، عالمًا صناعيًا مفتعلا ، عليهم مع ذلك أن يخرجوا منه فى كل لحظة ، رضوا أو لم يرضوا ، لينغمسوا كغيرهم من عباد الله فى ألوان شنيعة من القبح تتركهم متخاذلين مضطربين فى حيرة من أمرهم .

ولنقرر أنها حاجة ملحة تدعو إلى مواجهة الحقائق المرة ، ويستعان بها لتقهرها ، وإلى استبعاد ما يحيط بالأشياء من مظاهر خداعة ليصلوا إلى حقائقها . ولنقرر آخر الأمر أنها محاولة (لعلها مازالت فى حاجة إلى الحدق) لإنشاء عالم يشعر الواقع فيه بما ينطوى عليه من غرابة ومن قوة دلالة فى آن واحد . وكل من المقاومة هذه ، والحاجة الملحة ، والمحاولة ، يقتضى حتماً شيئاً من القسوة ، ويقتضى بطريقة غير مباشرة شيئاً من الخنو .

ينشأ من ذلك بالقياس إلى الكتاب الذين يريدون أن يروضوا أنفسهم

على هذه الأمور في غير ضعف ، مذهبان في الفن والأخلاق يتصلان بسلوك الإنسان ويدعمهما في الأثر المكتوب نفسه تشرح لارفق فيه وابتكار وتجديد في الأسلوب الانشائي تبعثها ممارسة الحياة اليومية . ولكن هذا الابتكار وهذا التجديد في سبيل المحافظة على الحق لا يسترسلان في تصوير الإنشاء الفني على شكل مثالي أعلى ؛ فقد يكون هذا التصوير شعرياً ، ولكنه خداع مغف ، لا يضيرهم في ذلك أن يتهموا بالقصور عن معرفة أسرار الألفاظ والصور ، وعن إدراك سحر الأفكار . فلا يقتصرون إذن على درس تقسية الفرد أو الجماهير ، بل يدرسون الوجود من الناحيتين الفسيولوجية والبيسيكولوجية . لا يقتصرون على كائن حي في نفسه أو على جماعة بعينها ، إنما يدرسون الكائن الحي في نوعه . وينشأ عن ذلك بصفة خاصة أن هؤلاء الكتاب سيترفعون في إباء عن كل ما يشبه أن يكون اغتصاباً للسلطان . فالكائن الحي الذي سيسعون إلى إعادة تصويره يجب أن يظل حراً في التصرف في نفسه . فلا ينبغي أن يوجه في اتجاه أو في آخر عن طريق القهر أو بدافع نزوة ، أو أن يستغل لأغراض نظرية أو لأهداف مغرضة ، أو أن يستعمل لإثبات أمر . كما يجب بلا شك أن يتجنب إخضاعه لمراكز وأزمات وحالات من الاضطراب لا تتفق مع استعداده . وينبغي أن يكون شخص قصتهم مطابقاً بالضبط لما هو حقيقة ، وألا يتقدم إلا في حدود طاقته . كما أن حياته قد تكون خصبة بالأنفعالات وقد تكون جدبة ، باختلاف ما يقضى به مركزه في المجتمع . ومعنى هذا ، على الجملة ، أن من الممكن أن توجد حياة لا تقع فيها أية حوادث ، ولا يحتم أن يحتل فيها الحب والبغض والطموح والمال المركز الأول كما جرت بذلك العادة في الأدب التقليدي ، وقد تنعدم فيها الدوافع التقليدية للقصص ، ولا يشترط فيها حتماً تحقيق الروح القصصية عن طريق تلك الحيل البالية التي كثيراً ما استغلها كتاب كثيرون مبتذلون ناجحون .

ينشأ منها أيضاً أن هؤلاء الكتاب سيشعرون أنهم يدفعون بأنفسهم في طريق يملؤها الشك والتساؤل . فهم يرفضون الاعتقاد بتبعية « الفرد » ، ولا يجرؤون على إصدار حكم أو على اتخاذ موقف . لا يظرون ولا يذمون ، بل يقتصرون على الافتراض . يعرضون مسائلهم دون أن يستبيحوا لأنفسهم الحق في احتكار حلها . فلا هم دعاة إلى الأخلاق ولا إلى ما يناقض الأخلاق بجرصون

على ألا يكونوا خصائص الفرد قبل وجوده متأثرين بهذا الرأي أو ذلك ؛ وعلى ألا يفرضوا على هذا الفرد عقاباً ، وألا يهبوا له تعويضاً على غير أساس . يحترمون كل ما يقع تحت الحس من عمل أو لفظ ، وكل ما قد ينبث في أعماق الأذهان من فكر أو رغبة ، ولكنهم ، إلى هذا ، يعرفون كيف يسبقون إلى الضحك من أنفسهم ، ومن تلك المهازل التي تجمع بين الجد والفكاهة الساخرة والتي يتنافس فيها اللهو والفجيرة بأعين الناس وهم لا يشعرون .

وقد أراد حسن الحظ أن هؤلاء الكتاب لم ينتظموا في هيئة واحدة ؛ فهم لا يزالون قليلين يمكن إحصاؤهم على أصابع اليدين . ولعل من الأمانة أن نقرر أن أحداً منهم لما يستكمل شخصيته ، وأن كل ما قيل هنا عنهم سابق لأوانه إلى حد ما . ولعله يوجد بينهم في المستقبل القريب واحد على الأقل يتقدم في شجاعة إلى نهاية المغامرة .

ولا يعنيننا أن تكون قد ذكرت بصدد هؤلاء الكتاب بعض عبارات غريبة تشير إليهم ، منها : المركب الشعري ، والكتابة القاسية ، والتحليل البسيكولوجي بواسطة المشرط ، وأتومولوجيا ^(١) الحوادث الحقيقية الضئيلة التافهة ، وفينومولوجيا ^(٢) العمل ، وفلسفة علل الوجود على أساس ما وراء الطبيعة ، وإيراز الأشياء والألفاظ ، والصياغة الموضوعية ، وأعمال البطولة التي لا علة لها ، والتطويف الذهني ، والاعترافات غير المحتملة .

فلا بد مع ذلك أن تكون الضرورة التي دفعتهم في هذا السبيل مطابقة لحاجة عامة ، حتى إنهم جميعاً قد حاولوا تصوير الانسان على صورة أكثر وضوحاً وأشد رسوخاً من الصور السابقة ، دون أن يتفوقوا على ذلك فيما بينهم ، وأن يعتمد كل واحد منهم على غير وسائله الخاصة .

فما عسى أن تكون هذه الضرورة ؟

يجب في مبدأ الأمر أن نتبين بوضوح قصور ما بين أيدينا من وسائل البحث البسيكولوجية . وإذا ألقينا نظرة إلى البسيكوجيا في عهدها البدائي ، ولنفرض البسيكولوجيا ذات البعدين ^(٣) (تلك التي نجدها عند لابروير وبلازك) او في

(١) علم الحشرات . — (٢) علم الظواهر . — (٣) يستعمل الاصطلاح الرياضي .

عهدنا الحديث الراقى حين أصبحت ذات الأبعاد الثلاثة أو الأربعة حين استكشفت أدق نظرياتها في « الزمان والمكان » (وتلك التي نجدها عند ستندال وعند بروس) فالتنازاد ثقة بالأمكن تفسير شئ إذا أصدرنا على استبعاد هذه الدراسات البسيكولوجية عن مكلها الفسيولوجى الذى لا غنى عنه .

والواقع أنه لا بد من تثبيت الإنسان بالتصور على قاعدة من القيل (شأن الضفدع التى يشرحها الطالب فى قسم الحيوان) حتى يصل الكتاب إلى أن يستخرجوا فى آن واحد انفعالات جسمية ونفسية ، وفيضاً غير متوقع من الألفاظ ، ومن الاضطرابات ، ومن التعقيدات العاطفية ، ومن الحرص المستتر ومن الجمجمة الغامضة ، ومن العادات السرية ، ومن الحركات العصبية ، ومن الحوادث الثقافية . وهى كلها أمور أشد إفصاحاً عن الطبيعة العميقة الدينية من أى شئ آخر .

وما عدا ذلك فسخف وتكلف للبيان . ولا يغيب أبداً عن بال هؤلاء الكتاب أن سلوك الإنسان يعتمد أولاً على تكوينه الفسيولوجى . وهم يرون أن أقل قرآن ، وأن أقل عمل ، وأن الاستعداد النفسى مثل الميل الشديد ، وأن الرغبة الشاردة مثل التعمت والإصرار ، كل هذه الأمور خاضعة خضوعاً وثيقاً لحياتنا العضوية . وبعبارة أخرى إن من يتحدث عن طباع رديئة ، أو أحلام رديئة ، أو غرائز رديئة ، عن عيوب أو دوافع محرمة ، عن ذائل أو فضائل ، يجدر به أن يتحدث عن تكوين جسم الإنسان . فليست المخلوقات شيئاً فى رأى هؤلاء الكتاب إلا بأعضائها الداخلية تسوسها وتبعث الحياة فيها . ومن هنا كان من السخف تقرير مسئولية الفرد أمام غيره . فمن ذا الذى يجروء جاداً أن يعاقب عسر هضم ، أو احتقاناً كلويّاً ، أو قرحة ، أو انحرافاً فى الصحة ، أو روماتزما ، أو أرقاً ، أو حمى ، أو هستيريا ، أو حالة ثمل ، ومن ناحية أخرى من ذا الذى يجروء أن يثيب صحة موفورة ، أو نشاطاً معويّاً مستمراً ، أو نوماً هادئاً ، أو عدم وجود اضطرابات على الاطلاق . . . فالحر والبرد والجوع والعطش والحرمان من الهواء أو شدة الهواء وسهولة التمتع بحاسة البصر والشم والسمع واللمس أو صعوبتها ، كل هذه عوامل تفرض نفسها أيضاً على الإنسان وتساعد بطريق غير مباشر على أن يعيل إلى السيرة المعتدلة أو المسرفة ، إلى

الحمود أو الهياج ، إلى الحسد أو عدم الاكتراث ، إلى الغباوة أو الحماسة الفكرية ، إلى الابتذال أو الرقة ، إلى الطيبة أو الشر .

واحترام مثل هذه المقتضيات في ميدان الإنشاء الكتابي معناه إذن بالقياس إلى هؤلاء الكتاب التعمق في بحوثهم والخروج بها عن الحدود المرسومة لها إلى الآن ، والبده بانكار الذعر من الحوادث ، كما أنكر جان بولان الذعر من الألفاظ ، لأن كليهما يشل .

ومعناه تأكيد الحاجة إلى فن يقال فيه كل شيء ، هذا اللون من الفن الذي استحدثه ديوجين ، وكان أول أستاذ له في العصور الحديثة مونتاني ، يشاركه في ذلك شكسبير وسرفانتيس ، ويعتبر بروست وجويس أصدق ممثلي له في هذه الأيام .

ومعناه الإلحاح في المطالبة بحرية مطلقة أزاء المبادئ التقليدية ، للفن وللكاتب نفسه ، ولما يعرض من فلسفة وما ينشئ من دمي . ومعناه الرغبة في التحرر نهائياً من الأوامر الباطلة ومن المبادئ الخلقية الملتوية . ومعناه إمالة اللثام عن الخداع المضني الذي يخفيه الذين يعمنون في إبقاء الإنسان في رقة يدعوى الحياء والاحتشام . ومعناه مساعدة كل واحد في التحرر من الأغلال التي تمسكه ، فيتبين مدى ما يملك من حرية في تعديل حياته إذا ما رغب في ذلك وعرف كيف يتحد مع نظرائه وكيف يثبت في مكانه . ومعناه إنماء حرية النقد التي تشجعه على ألا يذعر من النواوير . ومعناه آخر الأمر إنكار كل ما من شأنه استبقاء الأشياء في مواضعها والآراء في مخابها والأطماع في أعماق القلوب . معناه مهاجمة الراتعين الراضين الفاترين المسترخين الذين يرون أن كل شيء يمضي على أذلاله ، والذين يمنعون قلوبهم من أن تتأثر بالظلم وسوء النية لأنهم ينتفعون منها .

ومعناه كذلك ، في نحو آخر من التفكير ، احتقار الموضوع الذي يمارسه الفن . فكما أن بعض الرسامين اتفقوا على العدول عن نوع اللوحات التي تواضعت التقاليد عليها ، وعن اللوحات التاريخية والرمزية الكبرى ، ووجهوا عنايتهم إلى استخراج القيمة التصويرية أو الشكلية من رسم قيثاره أو برتقالة أو صدفه أو وردة ، بل من رسم مجموعة من البقع والأحجام والاسطر ، معرضين عن حكاية أي شيء كذلك يرى هؤلاء الكتاب أن لهم ، في الميدان الأدبي ، أن

يهملوا ما كان لدينا للإطار والقصة والعقدة والموضوع ، وأنه يجب عليهم ، على العكس من ذلك ، أن يعمنوا في تصوير الشكل الإنساني نفسه ، والأشياء (ملهوسة كانت أو غير ملهوسة) وغمغمة الحديث والفكر ، والزوايا ، والمعادلات ، والأضواء التي تكشف عنها انفعالات الأحياء في البيئة الاجتماعية والذهنية التي يضطربون فيها .

ولنسجل مع ذلك بعض التحفظات .

فهما قوى البغض للجزع من الواقع ، واشتد التمرد على الأصول السخيفة التي تنظم ما يقال وما لا يقال ، ما يعمل وما لا يعمل ، ما يكتب وما لا يكتب ، فقد نستطيع أن نتبين بوضوح مقدار الضرر الذي يصيب الفن من الإصلاح الذي ينشده هؤلاء الكتاب . فلا شك أن الرغبة المنظمة في أن يقال كل شيء ، قد تستتبع ابتذالا في اللغة ، فتنحط الآثار ويقل حظها من البقاء . وحسبك بتحريف اللغة وإفسادها كافيًا لانحراف الأجيال المقبلة عما كتبوا .

ثم إن الكاتب إذا استبعد الجزع من الواقع حين يكتب ، فانه يتعرض للحد من ميدانه في الشعور وفي التحليل النفسي ، كما يتعرض للإبعاد في التحليل العضوي والإسراف في القحة ؛ ولا ينكر قصصى الواقع أخطار مثل هذه المحاولة . قد يؤخذ على بروست الإسراف في الإذعان للغة الأكاديمية الرسمية وفي التقييد بشكل الجملة (وهذا الإذعان يحد بلا شك حظه من التوفيق) ولكن يؤخذ على جويس من جهة أخرى أنه حين حرص أشد الحرص على أن يواجه الحوادث ويستقصيها ويزدريها ويقول كل شيء ، قد صور الإنسان والعالم المحيط به في صورة تنحل آخر الأمر إلى أعضائه الداخلية وإلى عقله . فكل شيء عنده مركز في الحواس وفي العقل . وعبئنا نحاول أن نستكشف في كتابته عاطفة أو ابتهاجاً أو حالة من حالات القلق أو طموحا نفسيًا أو تردداً شعوريًا يشبه ما نلقاه عند كتاب بلغوا حظاً كبيراً من الرقة والدقة أمثال بوشكين أو أرلان . فعند جويس تطغى السخرية والبراعة الجافة للفكر على التأثر واضطراب النفس وتسودان دون غيرها ، بحيث نشعر شعوراً جلياً أنه لم يصور الإنسان كله بل نقص منه شيئاً .

قصصى الواقع يتمنى إذن أن يبدد السراب الذي توجده أساطير الواقع . فهو يريد فنًا يصل بدقته وجلائه وإفصاحه إلى قهر الأساطير الحديثة . يريد فنًا

مقاومة الدعر من الواقع

يحفظ للفظ جماله ووضوحه دون أن ينتقص من طرافته أو غرابته . يريد فنًا يحاول أن يبدد هذا الإيهام السائد في الأذهان ، فيهاجم في غير تردد أو هوادة تسلط الألفاظ والحوادث ، ويكافح في سبيل إزالة الكابوس الذي يضلل الفكر ويعرقه ، لتتقصر المسافة بعض الشيء بين الحق وبين أولئك الذين يلتمسونه في الظلمة منذ عهد بعيد ، أولئك الذين عقدوا آمالهم بالحرية .

مجموعه جيرانه

قلها لك العريفة الدكتور توفيق شحاته